أمّ أبيها

عبد الغني العمري الإدريسي الحسني

مقدمـــــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق العباد فجعل منهم الزوجين الذكر والأنثى، واصطفى من شاء من الإناث ليظهر فضله –كما ظهر على الذكر– على الأنثى؛ واختار هذه الأمة لتكون محل التكريم الأوفى، إكراما لنبيها صلى الله عليه وسلم الذي وفّى؛ ثم جعل لهذا الإنعام الأعظم فروعا بها يظهر ويسمو، فكانت دائرتا أهل البيت والصحابة الواحدة بأختها تزهو وتنمو؛ ثم اختار من الرجال عليا ليدل باسمه على مرتبة العلو التي له، وجعل من عدله فاطمة عليها السلام أهلا وكفؤا له، وإن كانت من جهة النسب الظاهر أقرب رحما، ومن جهة الحقيقة أَوْلى وأسبق حكما. وصلى الله على سيدنا محمد رفيع الذكر أصلا وفرعا، من كانت الرحمة له صفة لازمة وطبعا؛ فبلغ فضله كل بسيط ومركّب من العالمين، وأضاء نوره مشاكي المخلوقات ليصح لها الظهور في الظاهرين.

وبعد؛ فإننا بهذا الكتاب نقتحم بيتا عز أن يُرام، ونحوم حول حمى أنى يُحام؛ وما دفعنا إلى الطمع في الاقتراب، إلا نفع العباد من أمة أبي فاطمة بفتح هذا الباب؛ فإننا قد رأينا أن الناس عن الزهراء قد غفلوا، وما دروا أنهم ما فرطوا إلا في أنفسهم عندما لها أهملوا.

ولقد زاد من تعجبنا أن الأمم الأخرى لها نساؤها المعظمات، ونحن قد صُرف النظر –إلا من قبل الشيعة– عن سيدة السيدات. فنجد اليهود معظمين لسارة وإستير، والنصارى محتفين بمريم أم عيسى الكبير؛ أما فاطمة الزهراء فقد قصرت عنها الهمم، وانصرم دونها حبل رسن النفوس في الظُّلَم.

ونحن سنشير إلى ما به يعود الأمر إلى نصابه، عند إحلال نحل الدين محل ذبابه؛ لأن السوء الذي أسسه النواصب دهرا، لا ينحسر في لحظة إن لم يكن ذلك قهرا. وإن التشكيك في أهل بين النبوة قد عُمل عليه قديما وحديثا، من أجل بلوغ الغاية من إضلال الشعوب وتوجيهها توجيها خبيثا. فمن ذلك ما كان عن إضلال داخلي قديم، ومنه ما كان عن إضلال خارجي متعالم في ثوب عليم. وكما يعلم أهل النور، فإن النور النبوي أصل كل شفاء، رغم أن الجهل قد عمّاه وتعددت الأدواء...

والزهراء عليها السلام أعظم الأبواب وأخصّها، المُدخلة على الحضرة المحمدية وأشملها رحمة وأعمّها؛ ولكن قبل طرق الباب السامي، لا بد للطالب من أن يكون الحرص على الأدب له أسمى المرامي؛ ولا بد من استحضار التعظيم الواجب، لأطهر امرأة مشت على الأرض واستقلت المراكب. وهذا كله يتطلب إلماما بمرتبتها المنيفة، وشمّا لعطر صفاتها الشريفة. فمن حصل له من المؤمنين بعض ذلك، كان له أمانا من الله أن يقع في المهالك. ومن رزقه الله التأدب بآدابها، فإنه يُرجى له أن يُفتح له إلى أبيها من بابها، فيجمع حظوظ الأولين والآخرين من الأتباع، كما جُمع لها هي من غايات ما تكل عنه الأفهام والأسماع. وإنها لنعم الكريمة الجوادة، لمن نزل بساحتها وأناخ هناك جواده. فنرجو من الله تمام القبول، لهذا العمل وتحقيق

المأمول، فإننا نطمع في كرم يُغطي لنقصنا، وحلم به يكون التجاوز لعيبنا؛ فإننا نُعِدّ هذه المكرمة من ربنا، ليوم التجلي الأكبر لنا ولجميع حزبنا؛ والله سبحانه المجيب، ولعثراتنا المقيل ولأسقامنا الطبيب. وصلى الله على الوالد وما ولد، وسلم من غير حصر ولا عدد. والحمد لله المحمود بجميع المحامد، من كل معبود في العالمين وعابد.

الفصل الأول
مستوى الذات العلية

أول ما انمازت الذات لنفسها، ظهرت في الغيب للحق مرتبة الحق؛ وأول ما انماز الحق لنفسه، ظهرت في الغيب مرتبة الإنسان من جهة حقيقته الحقية؛ ومن كونها لمركز الذي ستدور حوله كل الحقائق الذاتية، التي هي في أصلها نِسب عدمية. ومع امتياز الحق، امتاز تلقائيا ما هو نقيضه في العقل، والذي هو العدم أو الباطل بحسب لسان الصدق بعد انفتاح القفل. وكما أن الحق أصل وفروع، فكذلك الباطل أقسام ومجموع...

فكان هذا التجلي الأول، تجليا للحق بالحق في الحق لنفسه، وعندما طلبت الحقائق حقيقتها، تعينت حقيقة الحقائق بصورة الإنسان في قدسه؛ فاجتمعت في غيب غيبه أسماؤه للتداول في أمر الظهور الذاتي بعد البطون؛ وهو غير الظهور في عالمي السماء والأرض، لأنه ظهور في البطون. وترأس المحضرَ الاسم "الله" مستندا إلى هاء هويته، ومتربعا في عالم المعاني المكنون على عرش معناه، لا على عرش مائيته. فكانت أول حركة معنوية في هذا المستوى انبثاق الاسم من المسمى، ودوران الأسماء حول الاسم الجامع المعمّى. فتعيّنت في العِلم الأفلاك السبعة التي لها الحكم على كل ما سينشأ من آثار في الذات، قبل إبداع الصنعة من قِبل الصانع وهيهات. وهذه الحركة الاسمية الأولى، هي منشأ أمهات الصفات العلية، التي إليها المرجع في التجلّي بالكلية. فعاد الاسم الجامع منها إلى حقيقة القطبية، وبقيت الأفلاك هنا للحياة والعلم والإرادة والقدرة والكلام والسمع والبصر بالاتباع والتبعيّة. فكانت الإشارة تصدر عن الاسم الجامع بوصفه مسمى، إلى من شاء من الأسماء الفلكية لتظهر حقائق المظاهر الاسمية في عالم العدم المُعمّى. فأشار الاسم "الله" الذي هو اسم للحق وللإنسان، إلى الاسم العليم بفتح سجلّه لينظر كيف يكون أمر التجلّي إذا كان. فكان أول تعيّن في الغيب ناشئا عن الحق والحياة والعلم، فكان هذا أصل كل تثليث في كل عالم بحسب الحكم والرسم. وأول ما ظهر له في الرقم من مبادئ عمله في الوهم، أنّ كل اسم لا بد له من مظهر يكون له كالصدف للؤلؤ المصون في الفهم. وأشار إلى أن ذلك كان قد اعتنت به المشيئة قبل أن يتحرك داعي الشؤون؛ إذ لولا المشيئة –كما أخبر الصادق الأمين عليه وآله الصلاة والسلام– ما كان ليتخلف عن الكوْن مُتخلِّف، ولا لكائن أن يكون...

فالتفتت جميع الأسماء الإلهية إلى صفة المشيئة فإذا هي متخدّرة، لا يُعلم لها اسم وإن كان القياس يجعل الناظر يفهم معنى "الشائي" منها وهي متسترة. لكن فعلها المحمود في الأزل بتعيين المظاهر التي تطلبها الأسماء، جَعَلَها في العين معظَّمة وسامية فوق كل سماء؛ وذلك لعموم منّتها وفضلها كل من حضر، وكل

من لا زال من الأسماء في صُلب الآباء، حتى إذا جاء الأوان ظهر. فكشفت بإشارة منها ما ترك العيون من الإعجاب بها مشدوهة منبهرة، عن صور عدمية لها التعيّن في السجلّ العلمي على ما هي عليه في حقيقتها هناك حائرة متحيرة...

وأول ما أشارت إليه المشيئة في سجل العلم، مظهر الاسم الجامع، القابل للتجلي بجميع مراتب الذات الأمّ؛ مجموعة ومرتبة بحسب ما يُعطيه النظم في المنظومات، ومتراتبة بحسب ما تحكم به المراتب على المحكومات؛ فكان لهذا المظهر اسم عام هو الإنسان للدلالة على المرتبة، وليمتاز ما كان ذاتا للذات، عما كان لكل عين في الإنسان من أحكام مُرتّبة. فليفهم القارئ الآن ما العين بالنسبة إلى العين، وما الإنسان في مقابل الإنسان في الأيْن...

فكان الإنسان صفة لهذا المظهر الفريد، وكان اسمه على التحقيق محمود ومحمد الحميد. فسجدت الأسماء لهذا المظهر وهو ما يزال في العدم، عندما علمت رتبته ومجده التليد في القِدم. والسجود في حضرة الأسماء يُعطيه علمُ المرؤوسين بمرتبة الرؤسا، الذين يكون محمد أرأسَهم قبل دوران الدور بالصبح وبالمسا. لهذا لا يُتصور في هذه الحضرة (حضرة الأسماء) منازع عنيد، لأن الشيطان لا مدخل له هنا وهو من سنخ العبيد...

فلما تملى الاسم الله بمظهره المحمود في العدم، تعلق به تعلق العاشق بالمعشوق فطلبه طلب المخدوم للخدم؛ فنتجت له مرتبة المحبوبية الكبرى، التي ستجعل –من باب تقليد الإمام– كل اسم يهيم من هذه الصورة العدمية بالجزء المخصوص بمعناه المشقوق حيث لا دنيا ولا أخرى. فانفطر هذا المظهر في حضرة العدم من شدة الوجد طلبا للفتوق، كما ينفطر قلب من اشتد به الوجد من كل مَشوق؛ فكان هذا هو سبب استقلال كل اسم من الأسماء بمظهره الخاص الممشوق، من دون اشتراط وجود الاسم الجامع إلا غيبا خلف كل المحدوق...

وعندما وقع التعلق التام من الأسماء بالمظاهر، ولم تبق جهة إلا وهي بأختها منوطة إناطة قاهر، انجمعت المشيئة التي هي مبدأ كل الأمر والأوامر، على فتح باب الوجود المغلق بأختام الأزل أمام المظاهر. فوقعت الجلبة بين حضرتَيْ الكتم والحضور لأجل المحاضر، ونادى المتكلم بعد إذن العليم ليُسمع السميع بالمخابر؛ لأن الخطب جليل لم يخطر ببالٍ، ولا مرّ سهوا على خاطر...

فانفهق بالاسم النور المُفيض للوجود، مظهر الإنسان الجامع لحقائق كل عابد ومعبود؛ فتعيّنت أولى المراتب الذاتية التي تجمع لكل أسرار الأسماء وأسرار صورها العنود، فكانت هذه الحضرة مسماة بالحقيقة المحمدية الجامعة، والواسطة بين عالَمَيْ الحق والخلق المانعة. وهذا قبل خلق السماء وجعلها مستقرا للآباء، وقبل خلق الأرض ورسمها محلا للأمهات وظهور الأبناء...

الفصل الثاني
مستوى الحقيقة المحمدية

لما خلق الله الحقيقة المحمدية وهي أول مخلوق والكلمة، ظهرت بصورة لؤلؤة بيضاء نقية مُحكَمة؛ فكانت استدارتها دالة على عدم انتهاء الأدوار الأبدية من جهة الشكل، وكان لونها دالا على اندراج جميع المراتب الوجودية فيها بالفعل. وأول ما انماز فيها بعد تحقق كينونتها بأمر كن، وصارت أُمّ الكلمات وأجمعها لهن؛ انقسامُ نورها كما ينقسم الشعاع قسميْن، انقساما معقولا، لا ما يُعرف من انقسام الجسم جسميْن. فأعطى الانقسام العرضي فيها ظهور حقيقتيْ الأول والآخر، وأعطى الانقسام الطولي حقيقتيْ الباطن والظاهر. فهو التخميس الذي ذكره الله في قوله تعالى: {هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ}، وهو المحيط بكل معلوم من الأسماء المولدات الناتجة عن جمع الهوية كلَّ اسم إلى مظهره العديم. فالولادة كما هو معروف لأهل الاختصاص تكون عن التثليث، والتخميس المذكور في الآية هو تثليث وتثليث. وهذا يعني أن "هو" له عمل مع الأول والآخر، وله عمل آخر مع الباطن والظاهر. وهكذا فإن كل معلوم ينشأ في عالم الحقائق، تكون حقيقته بين حدّيْنِ من أي طريق شئت وبأيّ الطرائق...

وبكل ما سبق ظهرت حقيقة الأمام والخلف، كما ظهرت حقيقة العلو والسُّفل من غير خُلف. فكان العلوّ لعليّ عليه السلام بالأصالة، وكان السُّفول لفاطمة عليها السلام بلا سفالة؛ لأن الحضرة حضرة جمع جمعيّ أقدس، لا يختلف فيه شيء عن شيء إلا من جهة المعنى لا الحس. فهذا، مما نشأ عن الأول والآخر والظاهر والباطن، بالانقسام الأفقي؛ وأما باعتبار آخر فقد نشأت حقيقة عيسى والشيخ الأكبر من جراء الانقسام العمودي الباقي. ولما كان البطون من هذا التقسيم الثاني لعيسى وابن العربي خاصا بالولاية، كان الظهور في المقابل للنبوة والرسالة والخلافة مع التغليب والوصل، لا مع الفصل التام فالشأن تَوَقٍّ ووقاية...

فلما نظر الاسم الأول إلى عليّ خرجت حقيقة آدم، فكان أول البشر خلقا عليه السلام؛ ولما نظر الاسم الآخر إلى فاطمة خرجت حقيقة حواء، فكانا مظهريْن للأبوة والأمومة في هذه النشأة الإنسانية بالكلية والتمام. وكل اسم أو فعل مشتق من الظهور، فهو إلى "الظاهر" يعود، وإن لم نبيّن ذلك نحن بالطريق المعهود؛ ليبقى كل مارتكناه من النشأتيْن الملكيّة والجنية، مستندا إلى الاسم الباطن من باب التقابل والنِّدّيّة...

ولما كان عليّ حقيقة آدم عَلوية، كانت الصورة الآدمية عمودية؛ ولما كانت فاطمة لا تنفصل عن علي في الحقيقة، ظهرت حواء من آدم في عالم الخليقة. فاجتمع الأولان بالتزويج النبوي ليُنتجا الذُّرّيّة

المحمدية في الأرض، وكان الآخران أوليْن زوجهما ربهما لتكون عنهما كل أفراد النشأة الإنسانية بالفرض. ومن انقلاب الحقائق في النظر لا في حقيقتها ظهر محمد، ابنا لآدم بعد انصرام عدة قرون وأجيال مع أنه أبوه والجد. ونعني من هذا، أن الحقيقة المحمدية بقيت بالنظر إلى الخلق، كالهوية بالنظر إلى الأسماء الأربعة في علم الفرق.

ولما خلق الله آدم من تراب، فإنه جمع له كل حقائق السفل؛ ولما نفخ فيه من روحه فإنه أعاد نسبه إلى علوه بالكل. وهذا ليكون مظهرا للحق في واحديته الظاهرة، وإن كانت الأحدية خلفها في نظر البصائر حاضرة. وخلق الله حواء في المرتبة الثانية من آدم، ليدل بها على نسبة الحق من العالم. فكانت حواء كالبنت لآدم بما أنها منه، كما كانت فاطمة بنتا على التحقيق لمن كان الكلّ –صلى الله عليه وآله وسلم– منه. ولما كانت المظاهر الإنسانية قد تعددت وكثرت، فإن حقيقة عليّ من محمد قد انفصلت في بنوة العمومة، ومن الاسم الواسع اتسعت. فلما زُوّج علي بفاطمة عليهما السلام، تم الدور للنشأة الإنسانية كما بدأ مع آدم على التمام. ولما كانا عليهما السلام آدم وحواء من هذا الدور الثاني، كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا أحب إليه منهما في كل هذا الغَوْر الفاني. وكان يرعاهما بنظره الشريف، كما كان الحق الأول يرعى الأبويْن الأولين من غير تطفيف. وكان محمد حقا وحقيقة مظهرا لله جامعا للقوسيْن، فلم يخرج عنه شيء من عالم الخلق ولا عالم الأمر بأي اعتبار من الاعتباريْن، أو أي تقسيم من التقسيميْن. وهذا لأن هذا التجلي يعود كما بدأ، من كل هوية إلى هويتها ومن كل حقيقة إلى الحقيقة التي عنها الكلّ نشأ.

الفصل الثالث
لِمَ كانت فاطمةً؟

ولما شاء الحق أن يُخرج من صلب محمد صلى الله عليه وآله وسلم الولد، أبقى الإناث وأخذ الذكور إشارة إلى انعكاس الأمر في الخلق من جهة السّند؛ ثم أخذ الإناث سوى فاطمة، ليظهر انفرادها بكل نهاية في الكمال وخاتمة. وجعل اسمها من الفطام بعد ما يكون من الرضاع، ليجعل حكم الذات العلية حاكما بعد التشعيب كما كان قبل الابتداع. فكانت فاطمة من هنا أما لأبيها، لا بنتا كما كانت أمها حواء زوجا لآدم وشبيها؛ وإن كانت حواء لا تخلو من معنى فاطمة، لكونها من مظاهرها في الزمان –كما سبق أن أخبرنا– مُعلمة بقدوم القادمة...

واختار الله لفاطمة أُمّا هي خديجة، لتدل باسمها على أن الأمر في حقيقته خدج وخديجة؛ وبالمعنى على أن الخلق ناقص بسبب اتصافه بالعدم، وإن سُربل سربال الوجود من حضرة القِدم. فلما أنارت بمقدمها فاطمة البساط، فإنها قطعت بحكم حقيقتها كل ما أنشأته أمها من النياط. وأول ما ظهرت هذه الحقيقة المائزة، ظهرت عليها فكانت لها مانعة وعنها حاجزة. ولولا أن إلفها بعليّ قديم، ما كان بشر يصل إليها ما انصرم الأسودان وأضاء القمران الليل البهيم...

وقد ظهرت قبلُ حقيقة فاطمة في القرون، ليتصل سر حواء بها عند اكتمال الأجل وهو سرها المصون. وكان ممن جاء على صورتها، مع قليل من التحريف؛ مريم العذراء التي خُصّت من دون العالمين بالتشريف. فكانت أما لكلمة الله عيسى وقد كانت جنينا في بطنها المحمدي؛ فكان امتناعها عن مباشرة البشر، دلالة على عزة السر السرمدي. وليس العجب من إنكار بني إسرائيل لمريم وقد خرقت السنن، وإنما العجب من هذه الأمة التي جهلت مرتبة فاطمة مع ظهورها بكل المنن... ولقد فطم فطام فاطمة عيسى عن النساء، إلى حين عودته إلى العالم بعد التكميل على قدم سيد الأنبياء...

ومن حقيقة الفطم غلبت على فاطمة العزلة بين الناس، فلم تكن لها صاحبات من قريناتها إلا على النادر الذي ليس عليه قياس. وهذا، لأنها منجمعة على باطنها؛ وباطنها ملتفت إلى باطنه وهو غيب غيبها. فكانت عليها السلام آية في التوحّد، بحيث لم تكن تحتاج إلا إلى دلالة توحيد من أبيها، ونظر منها إليها بهذا التفرّد. وكما أن عَلِيّا عليه السلام قد امتاز بظهور العلوم عليه من غير تعلّم، فإنها عليها السلام قد بطنت فيها الأسرار ليكون حالها في مقابله تمام التكتم. وهذا في الحقيقة هو سبب جهل عموم المسلمين لمقامها؛ مع كونهم مدركين له من وراء عقولهم بداهة ومن دون حاجة إلى تعريف به على السبيل المعهود لأن هذا من فطامها. ولولا هذا المعنى، ما تغيّرت نظرة الناس إلى عليّ بعد انتقال البضعة الشريفة عن هذه

الدنيا؛ حتى اجترأوا عليه في المعاملة وصاروا يُحاسبونه على ما يبدر منه وكأنه واحد منهم، وليس هو من دعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم من غير شرط إلى موالاته، في عالم الحسّ قبل عالم الرؤيا...

ولا فاطمة إلا وهي قبل ذلك مرضعة، فلهذا فليعلم الناظر أنها الممدة بكل ما ظهر في الأكوان عن أبيها من وجه الأحدية الجامعة. وقصدنا هنا من وصف الجمع، الخروج عن تقييد الأول والآخر والظاهر والباطن في الأصل والفرع. وهذا أمر لا تبلغه العقول، كما لا يخرج عن إحاطته عاقل أو معقول. فمن شاء الله له ذوق المشرب الأعلى قبل انقسام المشارب، فإنه يرزقه حظا من سقيا فاطمة، أكان من الأباعد أم من الأقارب. فلها عليها السلام ختمية الختميات؛ من ختمية أبيها، عليه أفضل التسليم وأزكى الصلوات. والحق الذي يشهد الأختام أنهم عنه يأخذون، ليس إلا فاطمة منضافا إليها في الشرف بعدها، بناتها والبنون. فاعرف قدر هذا المُرتقى الأرقى، ولا تكن ممن يُحجب عنه بأقوال من هم دونه فيشقى...

وعلى هذا فليُعلم أنه من بقي مع شيء من الأكوان بعد الإسلام، فما دخل بعدُ حضرة فاطمة عليها السلام. وقد أخفى الله قُوَّتَه في اتصافه بالصفات، في مظهر الأنثى، ليصد من لم يكن أهلا عن بابه ففات. ونحن عندما نجد الأولياء ينتهون في أنسابهم المعنوية إلى عليّ الأبهر، فإننا نراهم يغفلون عما انطوى في نسبهم ذاك من فاطمة السر الأكبر. ولسنا نعني هنا من هذه الطبقة الولائيّة، إلا من كان من أهل المرتبة الذاتية لا ما دونها من الصفاتية. بل إننا نرى لفاطمة في عالم السُّفل الأولية في العلم، كما كانت لعلي أوليةٌ حقيقية في حضرة الكتم. لذلك فهي الشمس التي كان علي يعكس نورها، وإن كانت تبدو قمرا بالنظر إليه عند إنهائها بالجريان مسارَها...

أما من جهة الحروف فلفاطمة، فاءُ «فإذا أحببته...» من حديث الولاية، وأَلِف الأحدية في المرتبة الثانية ظاهرا في الاسم عند إضافته إلى كاف الخطاب المحمدي من قوله تعالى: {فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ} في الآية. وأما الطاء فهي لكمال التحقق بالعلوّ حتى تكون مناسبة لعلي، وأما الميم فهي لختميتها من وراء كل ختم بمن فيهم عليّ؛ وأما الهاء فهي حقيقة مَبدَئِها ومعادها، من منزلها الأعلى العليّ المُجاوِز لكل علو في سؤددها. وهذه المرتبة هي ما كان يشهده أبوها فيها، عند حنينه إلى حقيقته بعد معافسة المراتب، ومعاملتها بما تطلبه من حقوقها فيعطيها. ومن هذا المشهد كان عليه السلام يناديها، من بين العالمين بأم أبيها. ولو علم الناس ما تحت هذه العبارة من إشارة، لعبد الجاهلون فاطمة من دون الله كما عبد الضالون من الأمم السابقة النجوم والحجارة. ولكن الله شاء لهذه الأمة الحفظ من هذه الآفة، بكمال النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأكمل، الذي قرّب بين العباد وربهم المسافة. وقال سبحانه: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ}، ليدل على أن المسؤول هو المسؤول عنه لكل لبيب...

الفصل الرابع
بعض وصف الزهراء

بعد أن عرفنا شيئا من مدلول الاسم الشريف، فلا بأس من التطواف حول الوصف المنيف. وقد شاء الله أن يجعله مشتقا من الزهر، ليدل على اكتمال ربيع الكون بعد حلول كل قمر في منزلة البدر. واللون الأزهر إشراب في النظر للأبيض بحمرة، فهو جمع بين حقيقة بياض اللؤلؤة وازهرارها في مقام السيادة من كونها باطن العبودية عند اكتمال الدورة. وهذا هو ما ذكرناه آنفا من حقيقة الدور، ليعود ما كان عاليا سافلا، ويصير الناقص كاملا بعد الكوْر. وإذا كان للزهراء لون الزهر كما ثبت لأبيها بالأصالة وهو سيد الأسياد في عبوديته التامة، فإننا سنجد عليّا في المقابل على لون اللازورد (زرقة السماء) في السيادة الظاهرة وعلوّ المكانة العامة. وهذا الظهور لما من شأنه البطون، هو ما جعل عليّا شبيها بعيسى من قبل أن يكون. وهكذا فإن السيادة التي ظهرت من عليّ فميّزته، كانت في فاطمة باطنة والجلال منها قد سترته؛ لتظهر الرحمة من ظاهرها وتعم، كل من قابلها ولطيبها صار يشم.

ولما كان النبي عليه السلام يعرض له من أذى قومه، كانت فاطمة تنصره وحدها وتبشره بكل خير كأمّه. وصاحَبَته في كل مراحل دعوته بما يُناسب، كل حال إلى أن قضى أجله وهي بعدُ تُراقب. لذلك فهي أعرف الصحاب بحقيقة الدين الحنيف، بما أنها عاينت ما لم تظفر الجماعة غيرها منه بالطَّيْف الطفيف. وسَمِعت الوحي كله من في والدها بلا واسطة، فكانت أسمع من غيرها لتكليم الله لها وهي للغير واسطة. فلم ير بصرها غير ربها على خلاف معتاد الناس، كما لم تسمع أذنها غيره، وهي المعصومة عن الوسواس؛ فتحققت بالجمع في أعلى مراتبه شهادة، وهو الذي عز فما ناله من طريق الإيمان غيبا إلا بعض السادة.

وأحوال فاطمة غريبة لا تُطال، وإن كانت في الحقيقة فوق المقال. هي الساذجة البسيطة في نفسها، الشريفة المشرفة تشريفا، وهي الجامعة لكل تركيب يظن أهله أنهم ببعضه قد شَفَّفوا على أقرانهم تشفيفا. فهي القرآن لكل ما الخلق له فرقان، وهي التي أجلى بعضَ خلُقها الحسنان. فواحد الحسنيْن لخالص الجمال، والآخر وإن جُهل لجمال الجلال. ومن علم ما وقع للحسيْن وكيف كانت شهادته، فهم إلى أي صنف من الجمال ينتسب وشهادته ولادته. وفاطمة عليها السلام عندما فقدت أباها عند وفاته، كانت قد فقدت ما تتعلق به بعده من هذه الدنيا في هذه المهامه. ولولا أنه عليه الصلاة والسلام كان قد أخبر بأنها أول أهله لحوقا به، لما أطاقت ساعة فراقه وحان حينها مع حينه. فكانت المدة الفاصلة بين وفاته ووفاتها، استعدادا منها بعد الشوق لملاقاته ومنه لملاقاتها. وهذا يعني أنها قد كانت غائبة عن كل مخلوق،

ومشغولة الذهن والحس بمن له كل الكون وهو شائق، مشوق. فمن نقل عنها في هذه المدة شيئا، فلا يصح النقل منه عنها لأن عينها الطاهرة كانت قد تجاوزت الفيئا.

ولما شاء الله بسط إنعامه على عباده، رزق فاطمة الحسن والحسيْن –كما أسلفنا– من خالص جماله. وأما محسن فقد توفاه صغيرا وقد، كان من حضرة الفعل لا من حضرة الوصف الولد. ومن جهة الغيب فإنه كان من الهوية المخمِّسة للتربيع، لذلك ما أسرع ما غاب بعد معقوليته عند التفريع. وبقيت من العقب الجوهرتان أم كلثوم التي كانت كُفأة للخليفة، وزينب التي عادت إلى العترة كما يعود الطيب إلى عوده عفيفة. وقد شاء الله للحسنيْن أن يجمعا في الفضل، كل ما للعترة التي تعدل القرآن كما دل النقل. وذريتهما قد حازت بعدهما من المنّان، من كل زمان منتهى العدل والإحسان. ولقد كان الحسن قرآنا جامعا، لما أورثه جده ومانعا. لذلك جمع الأمة عند وقوع الفتن، وحال دون سفك الدماء رغم ذيوع الإحَن. وكان الحسين فرقانا فاصلا، فانحصرت الإمامة الكبرى في ولده إلى المهدي الذي سيأتي بعد الجور عادلا. وهذا كله مما ظهر على فاطمة من فضل ربها، والشطر الآخر هو ما بطن، فجمعت بذلك المحاسنَ: القوالب إلى قلبها. فما بقي لها من خير تطمح إليه إلا ونالته، وعن الدنيا الفانية التفتت بحقيقتها وتطهرت من كل النقائص حالا وفعلا وفيما قالته. فهي بهذا المعنى حقيقة قدّيسة هذه الأمة، التي لم يكن للشيطان عليها سلطان، ولا له بها لمّة. وكان اسمها إذا ذكر تعوُّذا بالتعظيم، يأتي ذاكرَه من كونه اسما أعظم بكل خير عميم. وهي النصيرة إذا عز لخادمها النصير، وهي المُغْنية إن صح السؤال من كل عبد فقير. وقد نال العبدَ الحقير بعضُ نوالها، فكانت المنجية له في أصعب أيامه عند يقين نفسه بزوالها. وبما أنها عليها السلام لا تنفصل عن عليّ ولا هو عنها ينفصل، وأنها تصطحب السبطيْن أحيانا، إذا تَحُلّ أو ترتحل، فقد فزنا من عليّ بما يدعمنا ويؤيدنا في كل مرحلة، كذا لم يبخل علينا –وحاشاهما– الحسنان بما لم نزل لشكره في أسفل منزلة...

الفصل الخامس
تخليص للتخصيص

لقد شق على الزهراء أمر نُقل عن عليّ إليها، عندما قيل إنه كان يُريد خطبة ابنة أبي جهل عليها. وهذا أمر لا يقع من الناس في خلَد، وهل يستعيض عن الثريّا بالثرى أحد؟... إنما ذلك الشيطان رام أمرا فأَمَرا، أتباعه بالسعي حسدا بين القمريْن أَشَرا. وقد أظهر الله الحقيقة ناصعة، عندما جاء النبي إلى عليّ ليُراجعه؛ فألفاه نقيا كعهده به، وأعاد معه الزهراء وبنيها إلى بيته. وهذه المسألة لا قيمة لها على التحقيق، إلا من باب كون خصام المحبّين تجديداً لعهد المحبة كما يليق. فلا ينفُخْ أحد فيما ذكرنا هنا لئلا يلحق بالشيطان، –ولو من غير قصد– فإن اللعين يتصيّد الغافلين ومن يَهُن على نفسه يُهان...

وأما سؤالها عليها السلام من أبي بكر لأرض فدك فإنه ما كان يسترعي انتباهها قطُّ، وهي من تزهد في الدنيا بحذافيرها ولقدرها تحطّ. والصّدّيق لم يألُ جهدا في استرضاء السليلة، كيف لا وهو أعلم الناس بمكانتها! فلا يرُم شيطان دخيلة. وسواء سألت فاطمة أم لم تسأل، فإن الأمر انتهى عندما قيل بموافقة السنة فيما الخليفة فعل. وهي عليها السلام إن كانت لا تحفل منذ طفولتها الطاهرة بالدنيا وما حوت، فكيف ستأسى على بعض بعضها وهي في عينها بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد ذَوَت. وأما وجْدُها لبعض ما نُقل عنها فهو مما يُفهم، إن كان الناظر من أهل الحجى وصيارفة الحِكم؛ لأن الزهراء عاشت تحت كنف أبيها وهو أفضل الخلق قاطبة، فعزّ عليها أن ترى أحدا يحُل محله في الظاهر ولو بالخلافة الحاجبة. ومن لم يُفرّق بين الأمور في هذا المَحلّ، فلا عليه في أن يعود إلى شؤون نفسه لأنه لا يسير في نهار بل في ليل. فكان أبو بكر عليه السلام وهو الخليفة، لا يعد نفسه إلا من جملة الخدم للشريفة. ولولا أن الأمر كان يأتيه من حضرة النبي غيبا بمعالجة شؤون الأمة، ما اختار –وحاشاه– على لزوم باب فاطمة شيئا أو أهمّه. وليحذر الجاهلون الخوض فيما لا يعلمون، فإن فاطمة لها غيرة على أصحاب أبيها وخلفائه وغير هذا لا يكون. أما نحن وأمثالنا فممنوعون من الخوض فيما هو فوق أطوارنا، وجدير بنا التعظيم لكل من فوق رؤوسنا من خيارنا: فإن كانوا من أهل البيت النبوي، فهم عندنا من النفس النبوية الشريفة؛ وإن كانوا من الخلفاء والخلصاء، فهم في نظرنا من وزراء النبوة وخدم الأعتاب المنيفة. وكلهم خواص هذه الأمة المكرمة، وطليعتها في الدنيا والآخرة من غير منازعة، فهي محرّمة.

وأما ما يتناقله الرافضة فيما بينهم من أن أبا بكر بعث عمر إلى بيت عليّ، ليهدمه ويحرقه عند تأخره بالبيعة عنهم فبطلانه جليّ؛ وبلغ بهم الأمر أن أثبتوا تأذّيَ فاطمة في بدنها الشريف، ولحوقَ بعلها ما لحقه من القسوة والتعنيف. وهذا أمر لا يقع فيه سفهاء الأمة، فكيف بالصفوة من صحب النبيّ فيا لها من

مذمّة. ومن أراد التنقيص من كبار الصحابة، فلا يطمع في جعلنا نصدق منه تعظيم أهل البيت النبوي بحفظ المهابة. وذلك لأن المعظّم في الحاليْن هو النبيّ عليه السلام من غير شك، لأن الفرع لا يثبت إلا بأصله لدى الأسوياء بخلاف أهل الإفك. وأما تأخر عليّ عليه السلام عن البيعة، فكان جبرا لخاطر فاطمة وهو الإمام الأعلم بما كانت تستحقه من المواساة بعد مُصابها والهيعة. ومن لا علم له بسلطان الحال على خواص أهل الله، فالأليق به صرف النظر عما قد يكون سبب هلاكه فالرجاء التيقّظ والانتباه. وقد كان حال فاطمة عليها السلام بالنظر إلى سواها، كما قيل عن النائحة المتصنّعة والثكلى في بلواها. ومن لم يكن له علم بمعاملات القلوب، فلا يغرنّه علم من أحكام الفقه بمقارفة كبريات الذنوب!...

وأما عمر المعروف بشدته في الحق، فما كان ليغيب عنه وجوب تعظيم السيدة وهو به أحق. ألم يكن رضي الله عنه وقافا عند القرآن؟ فكيف يتجاوز مكانة فاطمة وهي من كونها أم أبيها الكتابَ المكنون الذي هو حقيقة القرآن؟... ألم يكن يلين في الحق لمن هو دونه، كما لان للمرأة التي ردّت قوله في المسجد والناس يرونه؟... أتكون عنده المرأة أعلى مكانة من فاطمة؟ وهو يعلم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما كان يُطيق غضبها فيجهد أن يُغيّر ما بها، حتى تضحك باسمة؟!... فإذا هي عليها السلام ضحكت، سُرّي عن النبي وعاد إلى عهده؛ وكأنه فرغ من أشد الهم وانزاح عن كاهله أكبر الأوزار نفوسنا له الفداء ولِوُلْدِهِ. ووالله لانفصال رقبة عمر عن جسده الشريف، أحب إليه رضي الله عنه مما يُلصَق به من قِبل من لا يُنبئ إلا عن حسده، كما يُنبئ عن السيْر الحفيف. ألم يحذّر الله عباده المؤمنين قائلا: {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ}؟ فكيف ينسى الناس سريعا، ويُلْقون أسماعهم لمن لا غرض له من إلقائه إلا القضاء على الدين وتشتيت صف المؤمنين؟...

وإن نحن قلنا بحزن فاطمة على وفاة أبيها عليه وعليها السلام، فهذا من جهة الظاهر والعادة وموافقة الأحكام؛ أما من جهة الباطن والحقيقة، فإن النبي ما فارق فاطمة لحظة ولا دقيقة. ولو أنها عليها السلام وجدت حقيقة الفراق، لفارقت نفسُها الشريفة البدن لتوّها من الإشفاق. وكيف تطيق البتول فراق من كانت تحيا به ولهْ، وكانت عند النظر تزداد شوقا إليه فَمَهْ (اسم فعل أمر معناه أُكْفُفْ)؟!... وهل يتمكن الشعاع من الانقطاع عن قرص الشمس ويبقى بعد الفراق؟!... فإن فهمت ما نريد فاحكم بدوام التلاق. وهكذا فإن الزهراء إنما تبدّل عليها الحال فحسب، فبعد ذوق اللقاء الحسّيّ صار اللقاء محلّه وحده القلب. ولم ينقطع النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنها يوما، لا لأنها لا تطيق ذلك وحدها، بل لأنه هو من لا يطيق وهو يراها أُمّا؟!... والفراق هنا واللقاء إنما هو اعتبارات ولواحق، أما النبي وبنته فلا يلحق بهما منزلة في الشهوق شاهق. وهذا لأن الحسّ في الحقيقة هو معنى، وكيف يغيب عن المعنى عقل وهو أساس كل مبنى؟!... بل هي أحوال سنيّة عليّة، نتبرك بذكرها لعلنا نفوز منه صلى الله عليه وآله وسلم ومنها ببارق؛ فإن الدنيا والآخرة جميعا، دون ما نذكر أو إليه نشير والسماء والطارق...

الفصل السادس

انتقال فاطمة

بعد انقضاء مدة الستة الدالة على تمام الأجل، رُفعت فاطمة عليها السلام إلى ربها طاهرة مطهرة من الوَثَل. فغسلها عليّ عليه السلام وبنت عميس أسماء، وكانت الفاطمة قد أوصت أن يُصنع لها تابوت لأنها كرهت أن يرى شكل جسمها الشريف أحد ممن تحت السماء. ثم دفنها عليّ في قلة من خواصه في البقيع ليلا على المشهور، مع التورية حتى لا يُعرف القبر الشريف ويبقى غريبا بين القبور. ونحن لا نشك أن الزهراء قد رُفعت إلى ربها، كيف لا وهي أحق الناس بالرفع عند اعتبار قربها. وذاتيتها كما يعلم خواص العلماء تحكم، بأن تخرج عليها السلام عن إدراك العامة فهي المنيعة التي عن ذلك تعظُم. وقد بقيت في نظر الناظرين كالمعنى من وراء اللفظ، مع أنها لا يخرج عن معناها شيء وأنها مطلوبة كل طالب وافر الحظ. وما كان يجوز غير ما جرى على الوجه الذي جرى، بحسب اقتضاء الحقائق والرتبة التي لا تنحصر في سماء ولا ثرى...

وأما نظر العامة من أهل السنة ومن الشيعة، فهو بحسب ما يُدركون مع كونها في نظرهم أشرف الشريفات لا الوضيعة. وبما أن العامة تنحصر مداركهم في المواجيد البدائية والبسيطة، فإنهم ينسجون حولها على عادتهم الأقاصيص التراجيدية التي يظنونها وسيطة. وأبلغ ما وقعت فيه الشيعة بحسب الزعم، تخصيص أيام للحزن على أهل البيت وهو لو عقلوا من توابع الفطم. وهذا لأن أهل البيت عليهم السلام جميعا لم ينلهم من ربهم إلا كل خير، وإن قصرت العقول عن درك ما كان رفيعا يسمو على الفكر. والعناية إن خفيت عن إدراك العامة، فأحكامها لأهلها من غير شك ثابتة وتامة. لهذا فينبغي على أهل العلم من المسلمين تصحيح ما ورثوه عن أسلافهم بحسن الظن، ومتى كان الظن يغني عن الحق المبين في كلّ فنّ!...

وانتقال فاطمة عن الدنيا كان إيذانا، بقرب فنائها وهذا يفسّر كثرة الفساد في الخلق عيانا. ولقد عم الخير القرون الأولى ببركة النبي صلى الله عليه وسلم، كما أخبر فرجح الوجود في الأمور كلها على العدم. وأما بعد ذلك فقد صار الفساد ينتشر، بسبب طغيان العدم فأين من يعتبر!... ونحن بالبعثة النبوية الشريفة قد أُخبرنا، أننا قد جئنا فيما بعد وقت العصر فما بقي إلا انتظار الغروب كما أُمرنا. وقد جاء موت فاطمة عليها السلام، ليؤكد المعنى بالتفاتها عن جميع من بقي خلفها من الأنام. أما انصلاح شأن الناس بالخلافة الخاتمة، فهو لتمام الأمر بواحد من ذرية فاطمة؛ ليعلم الكليل أن شريعة محمد، هي الجنة المعجلة لمن آثرها على كل فكر مجرّد. لهذا سيعود الحال بعد انقضاء وقت الاستقامة، إلى الفساد المستفحل قبل قيام الساعة وإتيان يوم القيامة.

فلما انقلبت فاطمة عن الدنيا كما انقلب أبوها، سُرّ بها عالم البرزخ لإقبالها وإن كان لا يحتويها. فهي وسيلة إلى أبيها كما، كان أبوها وسيلة إلى باريها. ومن لم يسعد بها من أهل الملّة، فقد فاته النصيب الوافر من الخير وترك جُلّه. لكن تعظيم السيدة الجليلة لا يكون إلا عن طريق تحصيل الطهارة القلبية، لأن بابها موصد في وجه المدنس بالحوادث ولحظ الغيرية. والتعظيم الظاهر من دون ما ذكرنا، لا يزيد منها إلا بعدا فها نحن للناس قد نصحنا. ومن كان من السامعين من أهل العناية، فإنه سيعلم أن فاطمة بضعة أبيها على كل حال فليحذر الغواية. فهي تدل عليه بكلها، كما دل عليه السلام على معناها بأحواله الشريفة من قَبْلها. وهذا شأن إلهي عجيب، لا يُنال بالعقل وهو بعيد غير قريب. فإن أكثر من ضل من أهل الديانة، أخو عقل ظن أن القياس سبيل للعلم بلا فطانة...

وكما خفي مقام فاطمة في الدنيا عن غير خواص المقربين، فكذلك سيخفى في الآخرة لأن حجاب العزة يمنع أيضا هناك عوام المسلمين. ولكنهم سيعلمون شيئا من مكانتها عن بعد، كما تعلم السوقة شيئا من هيبة السلاطين في كل عهد. وإذا رأيت أحدا ممن يُنسبون إلى العلم يتنقصون لفاطمة، فاعلم أن تلك علامة شقاوتهم وهي الدليل منهم على الخاتمة. وقد رأينا من يُفاضل بينها وبين عائشة عليهما السلام، ولا وجه للمفاضلة وقد امتاز المبتدأ من الخبر في مجمل الكلام. وهل يشتغل العالم بما ليس من طوره؟... فأين العلم يا من يفاضل فيما هو فوق قدره؟!... وقد عد الجهلة أنفسهم من أهل السنة وهم يناصبون العداء لآل بيت النبوة، وظنوا أن ذلك يخفى عن ذي نور معْ خصال فتوة. وفاطمة من أهل البيت كعمود الخيمة الوسيط، إذ كيف يثبت نسب لا ينتهي إليها عليها السلام عجبا كيف يغفل الناس عن أمر إدراكه بسيط. وقد أوضحنا السبيل إلى نيل رضى فاطمة، بين إفراط الرافضة وتفريط النواصب نعوذ بالله من سوء الخاتمة. فليلزم العبد بعد الإسلام للشريعة، مع التعظيم لها وطلب نيل القبول فضلا لا لسبب لأن السبب يُفضي إلى القطيعة...

ولا يظن أحد أن فاطمة مائتة كما يموت الناس، فقد نهى الله عن وصف شهداء السبيل بالموت وكم يفيد هنا القياس. فإن حيي الشهداء بحياة من مرتبة الأفعال، فما الظن بمن هي حيّة بحياة الله من مرتبة الصفات كمالا لكمال. والحياة ألصق الصفات بالذات فلا يغفل أحد، عما ذكرنا من سر أم أبيها وإن كانت بمنزلة الولد. فاللهم أفض علينا من حياتها لئلا يكون للموت علينا حكم، بجاهها وجاه أبيها من له في المكانة الزلفى اليُتم. واجنبنا أن ننظر إليها بعين التفريق فإننا، قد تعرضنا لسبحات الوجه اللائي أحرقْنَنا. وما كل حرق ذميم في اللسان كما، ما كل نجاة مطلوبة لمن ميّز الأرض من السما...

الفصل السابع
الرفع

إن الرفع يكون في حق الحقائق الكبرى من الحقيقة المحمدية، والتي ذكرنا عودتها إلى الأسماء الأربعة الجهوية المخمسة بمعنى الهوية. والمرفوعون ينقسمون إلى من رُفع بعد الموت، ومن رُفع من غير تحقق موت. فمن القسم الأول الأنبياء السابقون وكبار الصحابة والورثة من هذه الأمة، ومن القسم الثاني عيسى الذي سينزل في آخر الزمان ليختم الولاية العامة؛ ولتكون له الخلافة من عموم ولايته بعد انقضاء خلافة المهدي، وذلك قبل عودة الناس إلى حال البهيمية وقيام الساعة على من يضل ولا يهتدي. وأما المرفوعون بعد الموت من الأنبياء، فكلهم؛ وإن كانت الأخبار قد خصت ولم تعمهم. فذُكر رفع إدريس وإلياس، مع أن الأنبياء كل منهم قد رفع إلى مكانته من السماوات، كما أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث العروج المشهور؛ حتى ذكر آدم في السماء الأولى، وعيسى ويحيى في الثانية، ويوسف في الثالثة، وإدريس في الرابعة، وهارون في الخامسة، وموسى في السادسة، وإبراهيم في السابعة، على الجميع السلام في المساء والبكور. وهذا الرفع ليس هو الرفع الذي كنا نريد معناه، وإنما هو عودة أنفس الأنبياء إلى مقاماتهم في السماء لخصوصية كلٍّ في مجلاه. وهذه مقامات تدور على القلب الذي هو قطب الإيمان، لا على أعلى من ذلك مما تقتضيه حضرة الذات والقرآن؛ إلا ما يكون من اعتبار حال البداية الذي يكون الإيمان فيه مجملا، وحال النهاية الذي يكتمل فيه اليقين بعد أن كان في الأطوار مفصلا. والمقام الأول السماوي مع المقام السابع الإيماني برزخان: الأول بين من تحته من الأرض وبين السماء الأولى، والسابع بين من تحته من السماوات ومن فوقه من مرتبة التحقق الجُلّى. وأما الصحابي عامر بن فهيرة فقد رفع إلى السماء التي يكون فيها مأموما بأحد أنبيائها المخصوصين، وهو مما ينطبق على كل من له مناسبة بأحد الأئمة الأنبياء المعلومين. وهذا كله رفع مناطه مرتبة العبد المرفوع في الدلالة على الله، والمقام الذي كان يخاطب الناس في زمنه من سماه؛ وهو رفع من باب لحوق العبد بموطنه من السماء، الذي كان يصدر منه في كلامه وإشاراته، كما يلحق بمنبعه في الذكر الماء. ويبقى فوق هذا الرفع، رفع من ليس لهم قرار إلا مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، في حقيقته التي عنها كان كل شيء بعد مفارقة العدم. وهذا الرفع لا يكون إلا لكبار الرسل ولكبار أهل البيت عليهم السلام، وكبار الورثة من الذاتيّين المجاوزين لكل مقام. ورفع فاطمة من هذا الصنف الرفيع، وهي إن كلمت أحدا فمن ذاك الحمى المنيع؛ وكأنما كلمه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لكن من ذلك الوجه حصرا فخص وما عمّ. وأما الكلام الذي يُنسب إلى الحقيقة المحمدية كما هي، فهو الكلام الجمعي الذي ليس فوقه إلا العماء الذاتي بلا هو أو هي. ومن هنا يتعلم العبد فقه

الخطاب من كلام الله الكريم، عند اختلاف السور والآيات بما يُجاوز فقه اللغات ويدل على صريح التكليم. وفاطمة مكانتها عند حقيقة أبيها بلا انفصال، لذلك لن تجدها في السماء، إلا إن كانت تريد أن تتنزل إلى ما يُجانسها من مقامات، لحكمة تراها معتبرة في المعدودين من النساء والرجال. ورفعها على هذا عليها السلام، كأرفع الرفع كما لا مكانة فوق مكانة والدها خير الأنام. وهذا المستوى آخر منتهى الجمال، ومنه الإشراف على بحر المحق التام والجلال. وهذا السر هو ما يقهر ذوي الهمم العالية، على خفض النظر بين يدي الزهراء الغالية.

ولِما ذكرنا من مستقر فاطمة عند حقيقة والدها، فقد كانت عليها السلام إذا غضبت من أحدهم، توعدته بإخبار أبيها بما أصابها منه عند عودتها إليه كعودة الموتى من الدنيا إلى برزخهم. وقد أخبر بعض الأقطاب المشهورين من أهل المغرب، بأن روح النبي لا يتسع لها البرزخ الذي هو في القياس كالبعض منها إلى الكل، وهو ما عن المعنى الذي نحوم حوله يُعرِب. فظهر أن فاطمة عليها السلام تُرفع كما يُرفع عليّ وغيرهما من صفوة الصفوة لهذه الأمة الشريفة، كما رُفع من رُفع من الأنبياء السابقين ليلحقوا بأصلهم من الحضرة المحمدية المنيفة.

ومعنى الرجوع إلى الحقيقة المحمدية التي لها الأولية، هو الذوبان فيها ووقوع الاتحاد بها ليبقى بها الوليّ وتفنى حقيقته الجزئية. وهذا الذي نقوله يتحقق لأهل الحق وهم بعد في دنياهم، ومن مستواه يعلمون الله من علم محمد به لا من علم أنفسهم، فيخبرون بما لا يُدركه المؤمنون حتى في أخراهم. وهذه هي وراثة النبوة التي نتكلم نحن عنها المرة بعد الأخرى، والتي لا تنقطع بانقطاع نبوة التشريع وقد وقع الغلط هنا ممن زعم أنه بوصف العلم أحرى. بل إن الله الذي يصل إلى العلم به الواصلون، لا يُعلم إلا من الحقيقة المحمدية وحدها لا كما يتوهم القاصرون. والسبب هو أن الحق الأحدي لا ذكر معه لغيره، ولولا الواحدية الأحمدية ما اتسع لخلقه وأمره. وفضل محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الخواص من الورثة والأنبياء، لا يعلمه إلاهم وإن كانوا يعجزون عن شكره لولا أن علمهم بعجزهم يفتح لهم باب الزيادة الدائمة والارتقاء. فمحمد صلى الله عليه وآله وسلم واسطة وجودية بالنظر إلى عموم الخليقة، وهو واسطة علمية لكل من سواه من الأنبياء والأولياء في الحقيقة. وهكذا فإن فضله عام يشمل العلو والسفل واليمين والشمال، وعن شكر نَداه يعجز كلام كل متكلم وقول كل ذي مقال. وفاطمة من كونها بضعته الطاهرة المطهرة الشريفة، لا مُستقر لها إلا في بحر جوده ورحمته الخاصة الوريفة. فمن تمسك بأذيال ثوب فاطمة، فإنه لا شك مرحوم لأن تعلق القلوب رحم لا تقبل أن تفصمها فاصمة. ومن هنا أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن كون المحب مع من أحبّ، ومن أحب فاطمة فقد اتخذ إلى أبيها أقرب الوسائل والقُرب؛ فلا شك هو مرحوم بالرحمة الخاصة، لا سيما إن نزه محبته عن الابتداع والنزول بها إلى مستوى الرعاع. فاللهم لا تحرمنا نظرة عطف وحنوّ من أمنا فاطمة، فإنك تعلم حاجتنا إليها، وأنت من جعلتها لنا راحمة. واجعلها عندنا في أعلى مقامات التنزيه، حتى نَفِي ببعض حقها علينا يا من نفى عن نفسه وأثبت الشبيه. واللهم قدسنا

بقداسة فاطمة، وطهرنا بطهارتها؛ واجعلنا مظاهر لرأفة فاطمة، واسلك بنا ما يرضي عنا أهل عنايتها؛ واجعلنا خدما لذرية فاطمة، وادفع بنحورنا عمن حظي بغيرتها؛ ولا تحل بيننا في أي وقت وبين فاطمة، واجعل رجاءنا إليها يخرق كل باب، ويُجاوز بجاهها عندك من حاشيتها كل بواب ؛ واختم لنا بلثم ما تحت قدمها من تراب، فإنه عندنا أزكى من المسك الأذفر يا رب الأرباب. واللهم أنل أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم من فضل فاطمة، وأعدها بعد ما قُدّر عليها من انحراف إلى ظلها حتى يرضى والدها من بعد غضب فلا تهلك بالهالكة. وشفع في صغيرها وفي كبيرها وبرها وفاجرها فاطمة، فإننا نرجو ألا تشقى هذه الأمة وفيها خُلاصة الرحمة فاطمة... يا أرحم الراحمين، يا رب العالمين، يا الله!...

خاتمة

الدعاء الفاطمي

بسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه. اللهم إنا نعوذ باسم فاطمة عندك أن نُحرم من خير فاطمة. اللهم واجعلنا لحرمة فاطمة من الحافظين غيبا وشهادة بجاه فاطمة. وألحقنا اللهم بنسب فاطمة فإنه يسع كل مَن شئت يا رب فاطمة. اللهم اجعلنا راعين لحقها في كل من لها عناية به وكأنه فاطمة. اللهم إن كان للمؤمنين –ونحن منهم– أمهات، فأمنا عندك أم الأمهات فاطمة. اللهم اجعل فاطمة وسيلتنا إليك من أبيها، واجعلنا تحت نظر فاطمة. اللهم إنا نتوسل إليك بفاطمة حتى ترحم عموم أمة أبيها، ولا تجعل منها شقيا بحق فاطمة. اللهم يا مقيم السماوات بغير عمد نراها، أقمنا على الشريعة المحمدية ظاهرا وباطنا بسر فاطمة. اللهم اجعل فاطمة الوارثة منا حتى لا يبقى منا عندك سوى فاطمة. واللهم أَرْضِ فاطمة في كل شيء هو عندها ملحوظ، ولا تجمع في شيء بيننا وبين أعداء فاطمة. اللهم أقر عين فاطمة بأولادها إلى قيام الساعة، فلا يصيبهم أذى إلا ولهم عندك خير مما أُخذ منهم كفضل فاطمة على غيرها من النساء المخدومة منهن والخادمة. اللهم اجعل فاطمة تنظر إلينا نظر تعطّف، فإننا لا نستغني عن نظر فاطمة. اللهم اجعلنا خدما لذريتها على مر القرون حقيقة وبالنية، يا مولى فاطمة. اللهم اجعل نحورنا فداء لنحور وُلد فاطمة، واجعل أموالنا وأعراضنا دون أعراضهم فإنا لا نطيق غضب فاطمة. اللهم اجعل فاطمة تشفع لنا عند أبيها، وإننا نبرأ إليك من كل ما يُخالف الشريعة المحمدية منا أو جرى به القدر علينا، والحجة لك علينا يا رب فاطمة. اللهم إنا قد أتيناك مستظلين بظل فاطمة، فحل بيننا وبين السوء في داريْنا والحرز فاطمة. اللهم أَرْض فاطمة بما يُرضيها عنك، حتى تُفيض علينا من رضاها فإننا ما نرجو غير رضى فاطمة. اللهم اجعل عندك مثوانا إليها فإنها أمنا الراحمة، ولا تحل بنا عنها ساعة من زمان ولا أقل من ذلك فإنا نرى تلك القاصمة. اللهم إننا قد دعوناك بفاطمة ونحن دون أن ندعوك بها، فبرحمتك لا ترد لنا طلبا جئناك فيه بفاطمة. اللهم اجعل حبنا بحب فاطمة، واجعل بغضنا ببغض فاطمة. اللهم أفننا عن حظوظنا بلحظ حقوق فاطمة. اللهم واجعل رضانا في رضى فاطمة، واجعل غايتنا مراد فاطمة. اللهم إنا نستشفع بها إلى أبيها عليه الصلاة والسلام، فشفعه فينا بجاه فاطمة. اللهم وإن كتبتنا عندك من أهل الجنة، فاجعل مقامنا خدما بين يدي فاطمة. اللهم فرج عن أمة الإسلام بنظرك إلى فاطمة، وارحم ضعاف المسلمين برحمة فاطمة. اللهم إنا نتودد بفاطمة إلى كل من تحب فاطمة، فاجعلنا بكليتنا درعا ووقاية لعرض فاطمة. اللهم اجعل تراحم الأمة برحمة فاطمة، واجز فاطمة عن أمة أبيها خير ما جازيت إماما عن مأموميه وراعيا لسائمة. اللهم اجعل فاطمة وجيهة لنا عند عليّ عليه السلام، واجعلها

وسيلة لنا إلى الحسنيْن الأكرميْن حتى يتم لنا الإنعام على التمام. اللهم زدنا من حب فاطمة وآل فاطمة في الداريْن وإلى ما لا نهاية ولا خاتمة. اللهم إنا نستعيذك بفاطمة من أن يُصيبنا مكروه في ديننا مما يحط قدرنا عندك في الآخرة أو يحول بيننا وبين رؤية فاطمة. اللهم اجمع شمل المسلمين على راية واحدة هي راية فاطمة. اللهم لا تُفن هذه الدنيا حتى تري العالمين مكانة دولة فاطمة. اللهم أَوْرِث الأرض لذرية فاطمة، ليرفعوا اسمك عليها وليذكروك كثيرا فهم أهل الذكر بفاطمة. اللهم اشف أسقام قلوبنا بنور فاطمة، واشف علل أبداننا بذكر فاطمة. اللهم إنها نِعْمتِ الأم فاجعلنا لها برة بفضلك ورحمتك لفاطمة. اللهم صل على فاطمة في آناء الليل وفي ساعات النهار، وعد من صلاتك علينا ببركات الدنيا والآخرة بلا انقطاع في الإعلان والإسرار. اللهم وسلم على فاطمة سلاما من عندك يليق بها، وسلمنا ببركته من كل ما يُغضبك عنا فإنه لا باب لنا إلا فاطمة. اللهم زد فاطمة شرفا في الدنيا والآخرة، وزدها تقديسا حتى يَعرف قدرها كل عبادك فيعظموك بتعظيمها لتأتصر لهم بك الآصرة. اللهم عطر كل الأوقات بذكر فاطمة، وزد في طيوبها حتى تكون معدن الطيوب في الدنيا والآخرة. اللهم واجز عنا من هي بضعة منه خير ما جازيت نبيّا عن أمته، وأدم صلاتك عليه بدوام ذكرك في نفسك وعند خلقك، وسلم عليه تسليما يزداد به عندك كرامة وقربا وما لا يعلمه من عظيم المكانة إلا أنت. اللهم إنا نستشفع بالنبيّ الأميّ محمد وبآله إليك، ألا تدع ذنبا لنا إلا مغفورا، ولا عيبا إلا مستورا، ولا حاجة في الدنيا والآخرة إلا مقضية، وأن تجعل هذه الأمة مرحومة لا عذاب عليها إلا ما أصابها من بلاء في دنياها، وأن تجعل مَقدمها عليك يوم القيامة مقدم إنعام وإكرام، وإعلاء لقدرها بين الأنام. اللهم اكتبنا عندك بفضلك من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وحققنا بنسبة الإسلام لديك، وحلنا بحلل الإيمان حتى نقدم بها عليك، وجمّلنا بتيجان الإحسان لكي يُرى فضلك علينا بين يديك. اللهم اجعلنا بنعمتك ممن كبّرك تكبيرا، وحمدك كثيرا، وذكرك بكرة وأصيلا ذكرا وفيرا. اللهم اجعل هذا الذكر حرزا لكل من قرأه أو سمعه من كل ما يكره، واجعله ببركتك لكل من قرأه أو سمعه مجلبة لكل خير مرجوّ ومأمول مما عُلم ومما لم يُعلم. اللهم وعد ببركة هذا الدعاء على أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في كل أحوالها وكل شؤونها في كل أوقاتها؛ واجعله لكل من يقرأه أو يستمع إليه، بشارة معجلة له في الدنيا بالسلامة في الآخرة، فإنك ذو الجود والوهب والعطاء؛ تُعطي إذا شئت بغير حساب، مختار في فعلك لا يردّك عنه شيء سبحانك فأنت الوهّاب. اللهم واخلق من أنفاس قارئي هذا الدعاء ملائكة يدعونك به إلى قيام الساعة، واكتب ذلك كله بمنك في صحائف القارئين والمستمعين، وكل من أحسن بنا الظن ورجا عندنا فيك خيرا. اللهم إنا دعوناك لعلمنا بأنك تُحب من عبادك أن يسألوك، وعظّمنا المسائل لعلمنا بأنك تُحبّ أن تُسأل عظائم الأمور لعِظم قدرتك عليها. فالحمد لك اللهم على تعليمنا ما ينفعنا بين يديك، ونعوذ بك من كل علم يصدنا عن طريقك أو يردّنا عن بابك، فاختم لنا يا الله بالحسنى وزيادة، واجعل نسبتنا لكل من قبلها شفاعة وقبولا ورضى. اللهم إن رحمتك واسعة، وإننا نسأل أن تزيدها بفضلك سعة، حتى لا يبقى عبد من عبادك إلا وقد نالته ونالها، أو هو

لسبق علم عندك يرجوها بعد حين. اللهم اغفر لنا جرأتنا عليك، فإن الطمع في النوال قد أغفلَنا عن لحظ الأدب، وإنا نرجو برضاك أن نكون عندك ممن لا يُؤاخذون بمثل هذا، ولك العُتبى على كل حال حتى ترضى، يا الله! يا الله! يا الله! أجب يا سميع يا مجيب!...

والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

مقدمـــــة 1

الفصل الأول: مستوى الذات العلية 6

الفصل الثاني: مستوى الحقيقة المحمدية 8

الفصل الثالث: لِمَ كانت فاطمةً؟ 10

الفصل الرابع: بعض وصف الزهراء 12

الفصل الخامس: تخليص للتخصيص 14

الفصل السادس: انتقال فاطمة 16

الفصل السابع: الرفع 18

خاتمة: الدعاء الفاطمي 21

الفهرس 24